

الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل

[284] من قبلك فأخذناهم بالبأساء والصراء لعلهم يتضرعون). أما كان من الأجدر بهؤلاء

أن يستيقظوا عندما جاءهم البأس وأحاطت بهم الشدائد؟! (فلولا إـذ جاءهم بأسنا تضرعوا) أنـهم لم يستيقظوا، ولذلك سببان: الأوّل: إـنـهم لكثرة آثامهم وعنادهم في الشرك زايـلت الرحمة قلوبهم والليونة أرواحهم: (ولكن فست قلوبهم) والثّـاني: إـنـ الشيطان قد استغل عبادتهم أهواءهم فزيـن في نظرهم أعمالهم، فكل قبيح ارتكبه أظـهره لهم جميلاً، ولكل خطأ فعلوه جعله في عيونهم صواباً: (وزيـن لهم الشيطان ما كانوا يعملون). ثمّ تذكر الآية الثّـانية أنـه لمّا لم تنفع معهم تلك المصائب والمشاكل والضغوط عاملهم الله تعالى بالعطف والرحمة، ففتح عليهم أبواب أنواع النعم، لعلهم يستيقظون ويلتفتون إـلى خالقهم الذي وهب لهم كل تلك النعم، ويشخصوا الطريق السوي: (فلمّا نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء). إـلّا أنـ هذه النعم كانت في الواقع ذات طابع مزدوج، فهي مظهر من مظاهر المحبّة التي تستهدف إـيقاظ النائمين، وهي كذلك مقدمة لنزول العذاب الأليم إـذا استمرت الغفلة، والذي ينغمس في النعمة والرفاهية، يشتد عليه الأمر حين تؤخذ منه هذه النعم فجأة، بينما لو أخذت منه بالتدريج، فلا يكون وقع ذلك عليه شديداً، ولهذا يقول إـنـنا أعطيناهم الكثير من النعم (حتى إـذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون)(1). وهكذا استؤصلت جذور أُولئك الظلمة وانقطع نسلهم: (فقطع دابر القوم

1 - "الإِـبلاس" الحزن المعترض من شدة التآلم بسبب كثرة المنغصات المؤلمة، ومنها اشتقت كلمة "إـبليس"، وهي هنا تدل على شدة الغم والهم اللذين يصيبان المذنبين يومئذ.